رأس الأفعى

محمود سالم

رأس الأفعى

تأليف
محمود سالم

هنداوي

رأس الأفعى

محمود سالم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: وجدان توفيق

الترقيم الدولي: ٤ ٢٩١٦ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٩٧.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ محمود سالم.

المحتويات

من هم الشياطين الـ «١٣»؟	٧
أبطال هذه القصة	٩
التجسس من الفضاء!	١١
٥٠٠٠٠ كيلومتر من المخاطر!	١٩
الاستعانة بالفهد!	٢٧
السقوط في الشلال الوحشي!	٣٥
القبض على «بيزا»!	٤٣

من هم الشياطين الـ«١٣»؟

إنهم ١٣ فتًى وفتاةً في مثل عمرك، كلٌّ منهم يُمثِّل بلدًا عربيًّا. إنهم يقفون في وجه المؤامرات الموجَّهة إلى الوطن العربي ... تمرَّنوا في منطقة الكهف السِّري التي لا يعرفها أحد ... أجادوا فنون القتال ... استخدام المسدسات ... الخناجر ... الكاراتيه ... وهم جميعًا يُجيدون عدة لغات.

وفي كل مغامرةٍ يشترك خمسة أو ستة من الشياطين معًا ... تحت قيادة زعيمهم الغامض رقم «صفر» الذي لم يرَه أحد، ولا يعرف حقيقته أحد.

وأحداث مغامراتهم تدور في كل البلاد العربية ... وستجد نفسك معهم مهما كان بلدك في الوطن العربي الكبير.

أبطال هذه القصة

رقم «١»: «أحمد» من مصر.

رقم «٢»: «عثمان» من السودان.

رقم «٣»: «إلهام» من لبنان.

رقم «٤»: «هدى» من المغرب.

رقم «٥»: «بو عمير» من الجزائر.

رقم «٦»: «مصباح» من ليبيا.

رقم «٧»: «زبيدة» من تونس.

رقم «٨»: «فهد» من سوريا.

رقم «٩»: «خالد» من الكويت.

رقم «١٠»: «ريما» من الأردن.

رقم «١١»: «قيس» من السعودية.

رقم «١٢»: «باسم» من فلسطين.

رقم «١٣»: «رشيد» من العراق.

رقم «صفر»: الزعيم الغامض الذي لا يعرف حقيقته أحد!

التجسس من الفضاء!

كان الشياطين الـ «١٣» في انتظار رقم «صفر» بقاعة اجتماعات المقر السري الصغير بالهرم، وطال انتظارُهم، وعلَت همهماتُ الشياطين تتساءل عن السبب في تأخير حضوره ... وهي من الأمور النادر حدوثها جدًّا، وأيضًا تأخُّر حضورُ «أحمد».

رغم تأكيد رقم «صفر» على أهمية الاجتماع، وهل هناك صلةٌ بين عدم حضور كلٍّ منهما؟ ولماذا لم يتصل «أحمد» ولديه وسائل كثيرة للاتصال؟

ورغم طول انتظار الشياطين، إلا أنهم لم يفقدوا يقظتَهم وحماسهم واستعدادهم. وفي المقر السري الكبير بالصحراء الغربية، كان الأمر مختلفًا؛ فقد كانت هناك حركةٌ غير عادية وإجراءات أمنية مشدَّدة ... عبر أجهزة إلكترونية غاية في الدقة؛ وذلك لمسح المنطقة حول المقر، وتأمين الطريق حتى الموقع الجديد المعدِّ في الصحراء الغربية ... ولكن بالقرب من محطة رفع للمياه الجوفية، رصدَت أجهزةُ الاستطلاع سيلًا من الموجات والأشعة ... تُطلَق على المقر بين الحين والآخر بغرض التصوير والتجسس من أحد الأقمار الصناعية ... وبرصد موقعه وتحديده بدقة والتحرِّي عنه اتضح أنه لدولة ... لها في المنطقة العربية والأفريقية أهدافٌ وأطماع ... وكان القرار ... بتغير موقع المقر؛ بحيث لا يبعد كثيرًا عن الموقع القديم؛ فقد كانت هناك مساحة من الأرض تزيد على الألف فدان، يمكن استصلاحها وزراعتها؛ وذلك بالاستفادة من المياه الجوفية المتوافرة في الصحراء الغربية ... وبذلك أيضًا يمكنهم صرفُ الأنظار عن النشاط الحقيقي للموقع كمقر للمنظمة، وسيكون هذا مبرِّرًا لوجود معدات من أي نوع في هذه المنطقة الصحراوية.

وكان نقلُ المعدات من المقر القديم إلى الموقع الجديد، هي أهم وأخطر خطوة في العملية، فقد يتم رصدها والوصول إلى الموقع الجديد دون عناء؛ ولذا فقد لزم التمويه أرضًا وجوًّا، وتَرْك بعض المعدات في المقر القديم للإيحاء بأنه لا زال يعمل ... إمعانًا في

التضليل. وكان «أحمد» يمرُّ على حدود أرض الموقع الجديد للمقر، راكبًا جرَّارًا زراعيًّا، ليُتابعَ دقَّ العمال للسور السلكي الشائك حوله، كما كان بعضُ الفنيِّين التابعين للمنظمة يُثبِّتون هوائيات استشعار إلكترونية بين مكونات السور.

وفي نفس الوقت وعلى الشاشة العملاقة التي أُضيئَت عقبَ إطفاء الأنوار في المقر السري الصغير، ظهرَت الأرض المحاطة بالأسلاك الشائكة، و«أحمد» يخرج من أحد الصوبات المنشأة عليها، وقبل أن يعلوَ صوتُ أحدهم بالسؤال، كان صوت رقم «صفر» يُجيب عن استفساراتهم عبر السماعات المثبتة جوار الشاشة قائلًا: مساء الخير عليكم، أوَّلًا ما يُعرَض عليكم الآن ... هو تصويرٌ حيٌّ للموقع الجديد للمقر السري الكبير بالصحراء الغربية، وأنا أحدِّثكم الآن من هناك ...

وقبل أن يسألَني أحدُكم: ولماذا موقع جديد؟ أُجيبكم بأن هناك محاولات مستمرة لاقتحام معاقل الأجهزة الأمنية في مصر، والتجسس عليها. ورغم أنها تبوء دائمًا بالفشل ... إلا أنهم لا ييأسون. أما مَن هم؟ فهم معروفون لنا جميعًا ... إنهم أول المستفيدين من تشتُّت العرب وتفرُّقهم وضعفهم، إنهم أول الذين يحلمون بالمجد الكبير على حساب مصلحة الجميع، المهم هو تحقيق أحلامهم التوسُّعية. ولكن لماذا التركيز على مصر بالذات؟ ذلك لأنها قلب الأمة العربية النابض، وعقلها الواعي، وهي الحبل المتين الذي إذا وهن أو انقطع، انفرط العرب وأصبحوا فريسةً سهلة لذلك الذئب الجائع.

وفي القريب حاولت عصابة الأقزام اقتحامَ المقر السري الصغير في الهرم وفشلت. والآن هناك قمرٌ صناعيٌّ يقوم بالتجسس على المقر السري الكبير؛ لذا فقد انتقلنا إلى موقع جديد أُعِدَّ بسرعة، مستخدمين في التخطيط له أحدثَ التقنيات مع إبداع مصري خالص لأساليب التخفِّي. وقد أرسلتُ لكم خريطة على أجهزة الكمبيوتر للموقع، ونحن في انتظاركم للتعرُّف على الموقع الجديد ... وشكرًا لكم.

وقبل أن تُظلِم الشاشة العملاقة، كانت أنوار القاعة قد أُضيئَت ... لينظر الشياطين لبعضهم متسائلين في صمتٍ قطعَه «عثمان» بسؤاله: وقضية هروب «بيزا» ... و«مارلو»؟

«إلهام»: أعتقد أنها حتى الآن قضيتنا وعمليتنا القادمة.

«فهد»: نعم ... فتغيُّر موقع المقر، هو الردُّ على عملية التجسس، التي يقوم بها القمر الصناعي.

«ريما»: وهي حلقة ضمن سلسلة، تضم فرقة الاغتيال، وعصابة الأقزام وغيرها ...

إلهام: وهل تعتقدون أن ذهابنا إلى المقر الرئيسي الآن لمجرد زيارة الموقع الجديد فقط؟

عثمان: لا ... فأنا أشمُّ رائحة مغامرة جديدة في مكان خارج مصر.

مصباح: حيث هربت «بيزا» و«مارلو» عُضْوَا فرقة الاغتيالات.

إلهام: أنا أيضًا أُرجِّح أنهما خارج مصر الآن.

ريما: وهل يعني هذا انتهاء مهمتهما في مصر؟

فالتفت الجميع إلى «عثمان» وهو يصيح قائلًا: لا ... بل إنها البداية ...

في تمام الساعة الرابعة بعد الظهر ... شهدَت بوابة المقر الأمامية والخلفية خروجَ سيارات الشياطين ... بفارقٍ زمني بين كل سيارة وأخرى خمس دقائق. ويجتمع كلُّ اثنين ... في سيارة ليتجهَا إلى طريق مصر إسكندرية الصحراوي الواقع خلف المقر، منطلقين إلى وجهتهم في الصحراء الغربية ... إلى الموقع الجديد ... للمقر السري الكبير ... وفي جهاز الكمبيوتر الخاص بالسيارة، وضع كلٌّ منهم الخريطة الإلكترونية التي تم برمجتها بالمعلومات التي بثَّها رقم «صفر» على كمبيوتر المقر.

مضى الليل، وسيارات الشياطين تتلاحق مُحاذيةً للبحر على طريق كورنيش مرسى مطروح. فاقترح «عثمان» أن يبيتوا الليلة على الشاطئ؛ فشهر يوليو هذا العام أشدُّ حرًّا عن الأعوام السابقة، وهي فرصة للترويح عن أنفسهم.

فصنعوا بسياراتهم الست شبهَ دائرة مغلقة، وافترشوا فيما بينهم الرمال، وكان القمر بدرًا، مما أضفى على مياه البحر خيالًا وعذوبة، حرَّكت مشاعر الشياطين؛ فكلُّ مغامرٍ يحمل بداخله بجانب المحارب ... شاعرًا رقيقًا. وكان أول ما تبادرَ لذهن «إلهام» هو ما كان سيُضيفه «أحمد» من خفَّة دمه ودفء مشاعره، إلا أن «عثمان» اعتذر لها؛ فمسألة خفَّة الدم هذه تخصُّص الجنس الأسمر، وكلما ازداد اللون سمرة ... ازداد الدمُ خفَّةً وسخونة؛ وهذا يعني أنه أخفُّ دمًا من «أحمد»؛ لأنه خمري.

إلا أن «زبيدة» كان لها رأيٌ آخر؛ فالمصريون معروف عنهم خفة الدم التي لا تُبارَى، ودفء المشاعر التي جعلَتهم يدفعون دماءَهم ثمنًا لعروبتهم في «اليمن» و«فلسطين» و«الخليج» ...

فاقتضب «عثمان» تعبيرًا عن عدم رضائه؛ مُعلِّقًا بأن كل عربي لا يبخل على عروبته بدمائه.

ورأت «إلهام» أنها يجب أن تتدخَّل لتحسم النقاش قائلة: بالطبع يا «عثمان» ... فالوطن واحد والدماء واحدة ... ولكن تُرى يا «عثمان»؛ هل سيظل الوطن واحدًا ... وهناك ألف إرادة حوله تحاول، بل وتعمل على تفتيته ... والتفريق بين أبنائه؟

عثمان: سيظل الوطن واحدًا ... بدليل تعاقُب المحتلِّين الذين قسَّموه وشتَّتوه ... ولكن دائمًا ما يلتئم كالجرح، وإلا فسيظل ينزف دماءً حارَّةً تحرقهم.

تصايح الشياطين بصوتٍ هادئ، مستحسنين ما قاله «عثمان»، مُعلِّقين على أن هذه الجمل الفيَّاضة إنما هي ... من تأثير هذا الجو الخلَّاب.

وعندما تسلَّلَتْ أصابعُ الفجر لتُزيحَ ظلمة الليل عن وجه النهار، وقبل أن يتثاءَب الصبح، كان الشياطين يتثاءبون، لينفضوا عنهم حلاوة النوم، مستقبلين حلاوة اليقظة.

وقبل أن تنتصف الشمس في كبد السماء، كانت السيارات تتلاحق خلف بعضها، لتنحرف عن الطريق إلى كهفٍ غير ظاهر، وتنحدر على ممرٍّ صخري ناعم، مهَّدَته أيدٍ خبيرة، وتتوقف بعد طول مسير في قاعة أُعِدَّت على أعلى مستوى تكنولوجي للعناية بالسيارات وصيانتها. ومنها وبمعاونة مرشد ضوئي ... انتقلوا إلى قاعة الاستقبال التي أعلنت لهم عن مفاجأة سارة ...

فقد كان «أحمد» في انتظارهم ومعه بعض العاملين في المقر، وكان اللقاء حارًّا، ولكن الجو كان مكيفًا، والمقاعد وفيرة ... والقاعة مزوَّدة بكل وسائل الراحة. وقد تناولوا فيها طعامهم؛ فهي مُعَدَّة لذلك، وحين فرغوا منه سمعوا صوت رقم «صفر» يُهنئهم على سلامة الوصول. ثم طلب منهم عقد اجتماع بعد ساعة تكون فرصتهم ليقوموا بجولة في المقر الجديد.

وصَحِبَهم «أحمد» ليُريَهم كلَّ وسائل الدفاع الإلكترونية، ضد موجات وأشعة وفضول الأقمار الصناعية وغيرها، ولوازم التمويه من قطعان الماشية التي تملأ المزرعة والصوب الزراعية التي تحوي بجانب المزروعات كثيرًا من أجهزة الاستشعار والشوشرة الإلكترونية.

وقبل موعد الاجتماع، كانت القاعة الشبيهة بقاعة اجتماعات المقر القديم تحوي صمتَ وترقُّبَ ثلاثة عشر شابًّا وفتاة؛ هم أعضاء المنظمة؛ حيث أتاهم صوتُ رقم «صفر» العميق من جَنَبات القاعة المزوَّدة بأحدث نظام صوتي ليسألهم عن استعدادهم لبدء الاجتماع، فيرفعون أيديَهم بالموافقة، وهنا أظلمَت القاعة، وأُضيئَت الشاشة التليفزيونية الضخمة ... ظهرَت عليها خريطةٌ لأفريقيا صاحَبَها صوتُ رقم «صفر» مُعلِّقًا بقوله: هذه القارَّة السمراء والتي كان معظمها خاضعًا للاحتلال، ما بين إنجليزي وفرنسي وإيطالي ... هي قارَّةٌ غنيَّة جدًّا بثرواتها الطبيعية، ومع ذلك فمعظم أهلها يموتون جوعًا وبالذات في الجنوب، لماذا؟ لأن هناك دولًا تريدها هكذا ...

وهنا ظهر سهمٌ أحمر يومض ويختفي، ليُشيرَ إلى منابع النيل ومجاريه ويُعلِّق رقم «صفر» قائلًا: وأهم ثروات أفريقيا نهر النيل ... نهر الحياة الذي يُغذِّي أكثر من ٢٥٠٠ مليون فدان في السودان وحدها من أجود الأراضي الزراعية، وزراعتها تكفي حاجة المنطقة العربية كلها من الحبوب، والخضراوات وغيرها، بل والتصدير المنافس لكثير من دول العالم، فما بالكم بباقي دول حوض النيل.

ومنها بالطبع ... مصر، والذي يعتبر نهر النيل هو شريان الحياة بالنسبة لها. وهناك دولٌ تحاول إقامة مشاريع قُرب منابع النيل، تُهدِّد به أمنَ جنوب مصر وغربها، ولكن وقفَتْ لهم بالمرصاد.

لذا فأفريقيا هي البُعد الأمني لجنوب مصر وغربها ... وقد جاء إلى عِلمنا أن «بيزا» و«مارلو» قد استطاعا الفرار إلى إحدى دول أفريقيا ... ويُرجَّح أنها «زيمبابوي»، وأنا أُفضِّل أن تُطالعوا التقرير عن «زيمبابوي» قبل الاجتماع التالي. هل من أسئلة؟

إلهام: هل سنسافر إلى «زيمبابوي»؟

رقم «صفر»: انتظري الأوامر ... شكرًا ...

وبمجرد انصراف رقم «صفر» ... ذلك القائد الغامض الذي لم يرَهُ أحد حتى الآن، علَت همهماتُ الشياطين ودهشتهم وتساؤلاتهم، فما من دولة في العالم مستهدَفة مثل مصر، وما من منطقة تُقام حولها المؤامرات ... مثل الشرق الأوسط. ولكن السؤال الرئيسي الذي شغلهم جميعًا هو: لماذا «زيمبابوي»؟

لذا؛ فقد طلبوا من «أحمد» ألا يغادروا قاعة الاجتماعات، وأن يعرض لهم فيلمًا وثائقيًّا عن «زيمبابوي»، فاقترح عليهم أن ينتقلوا إلى مركز معلومات المقر؛ فهو المكان المناسب جدًّا لِما يطلبون. وبعد موافقتهم ... اتصل «أحمد» بمركز المعلومات، وفي غضون دقائق كان الشياطين يستطلعون على ما شاءوا من المعلومات على خريطة «زيمبابوي» المعروضة أمامهم على شاشات أجهزة الكمبيوتر.

وأول ما لفت نظرَ «أحمد» ... أن موقعها لا يمثِّل أهمية استراتيجية كبيرة بالنسبة لمصر.

فهي ليست من دول حوض النيل، ولا تقع على البحر الأحمر، وليس لها حدودٌ مع مصر، بل بينهما عدة دول، تبدأ بـ «السودان» ثم «زائير» ثم «زامبيا»، وأخيرًا «زيمبابوي». وهي تتوسط أربع دول هي من الشمال «زامبيا»، ومن الجنوب دولة «جنوب أفريقيا»، ومن الشرق «موزمبيق»، ومن الغرب «بتسوانا». وكان هذا ما لفتَ نظر بقية الشياطين، وأثار تساؤلاتهم ... عن السبب وراء سفر «بيزا» و«مارلو» إلى هناك.

فقالت «إلهام»: ربما يكون هذا هو السبب.

عثمان: ماذا تقصدين؟

إلهام: بما أنها بعيدة عن موقع الأحداث وليس لها الأهمية الاستراتيجية الأمنية لمصر، والتي تُمكِّنهم من تهديد أمنها ... فقد لجأَت إليها «بيزا» لتضمن عدمَ مطاردتها وتُعيد ترتيب أوراقها بهدوء.

أحمد: تحليل جيد ... وربما لنفس السبب أيضًا تتخذ قيادة هذه الجماعة «زيمبابوي» مقرًّا لها ...

عثمان: أتعني أننا لم نقطع رأس الأفعى بعد؟

أحمد: لا؛ ولكن هذه الأفعى لها عدة رءوس.

إلهام: أنا أُرجِّح أن رأس الأفعى الآن هي «بيزا».

ريما: وهي جسمها أيضًا، وستكون مهمتنا في «زيمبابوي» هي ...

فسبقها «عثمان» قائلًا: قطع رأس الأفعى.

علا في هذه اللحظة صوتُ فحيح أفعى أثار دهشة الشياطين، أعقبه صوتُ رقم «صفر» يقول: إنه كمبيوتر المقر وقد طلبتُ منه إطلاق صوت أفعى، فأعطاني ذلك الفحيح.

أحمد: ولماذا صوت «أفعى» بالذات؟

رقم «صفر»: أجيبوا أنتم.

إلهام: إنه اسم العملية القادمة.

رقم «صفر»: نعم ... «رأس الأفعى».

عثمان: أهي «بيزا»؟

رقم «صفر»: أنشط عضو في فريق الاغتيالات. وكانت لها جولات مع «عثمان» وخرجت رابحة ... ونتمنى أن تكون هذه الجولة هي الأخيرة ... والرابحة له.

عثمان: وكيف تكون الرأس وهي عضو في الفريق؟

رقم «صفر»: إن الرأس عضو في الجسد ... ولكنه العضو القيادي، وكذا «بيزا» الآن بعد القبض على «هاري» و«فلاديمير» ومعهم «بتريشيا».

إلهام: وهل من مفاجآت هناك؟

رقم «صفر»: هذا غيب ولا نعلم شيئًا حتى الآن ... وعلينا أن نحتاط.

على كل حال «زيمبابوي» بلدٌ جميل، ويزوره كثيرٌ من السياح ... وسيسافر «١، ٢» كسائحَين، أما «عثمان» فلأنه يُشبه أهل البلاد هناك ... فسيسافر معهم كمرشد سياحي،

والباقون ينتظرون الأوامر، ولديهم هنا في المقر الجديد عملٌ كثير ... نظر الشياطين لبعضهم في حذرٍ وتساؤل، فأكمل رقم «صفر» قائلًا: سيبدأ الإعداد من الآن للمهمة القادمة، والتي ستبدأ بمجرد انتهاء عملية «رأس الأفعى». أما أعضاء عملية «رأس الأفعى» فسيجدون ملف العملية في غُرَفهم، والسفر صباحًا ... وستُقِلُّهم طائرة إلى مطار القاهرة حيث سيستقلُّون الطائرة المسافرة إلى «هراري» أو المدينة التي لا تنام، شكرًا لكم.

ومرة أخرى علا صوتُ فحيح الأفعى، وظهرَت على شاشات أجهزة الكمبيوتر أمام الشياطين ... مدينة «هراري» عاصمة «زيمبابوي» ... ولكن توقَّفَت الصورة فجأة، ثم اختفَت تمامًا من على الشاشة ... التي أظلمت لفترة وجيزة، سمعوا خلالها موسيقى ناعمة تنبعث من جَنَبات القاعة، قطعها صوتُ رقم «صفر» يقول: سنعرض عليكم فيلمًا حديثًا عن مكان يحرص زائرو «زيمبابوي» على زيارته ... إنه «شابونجو». وهي حديقة تقع على بُعد كيلومترات من العاصمة «هراري». وعلى الشاشة ظهرَت الحديقة كمتحف مفتوح لعشرات التماثيل الحجرية الأفريقية والتي علَّق رقم «صفر» عليها قائلًا: إن «زيمبابوي» تُعتبَر مستودعًا لفنون النحت الأفريقي، وقد أُنشئت هذه الحديقة عام ١٩٨٥م لتكون معرضًا ومرجعًا لفنِّ النحت في «زيمبابوي»، ولكن ما لفتَ نظرَنا هو هذا التمثال ... وظهرَت حلقةٌ حمراء تُحيط برأس التمثال، وهنا صاح «أحمد» قائلًا: لقد رأيتُ نموذجًا مصغَّرًا لنفس التمثال معلَّقًا في رقبة «مارلو».

٥٠٠٠٠ كيلومتر من المخاطر!

كان التمثال لفتاةٍ زنجية، ذات ملامح أوروبية جميلة، أثارَت انتباهَ «عثمان» الذي لم يلتفت لسؤال «أحمد» إلَّا عندما دفعه في كَتِفِه، فأفاق على ابتسامة وهو يسأل إن كان قد رأى هذا التمثال على صدر «مارلو»؟

فقال «عثمان» وهو يحاول الخروج من شروده: نعم ... نعم، ولكن هناك ما هو أخطر ... إنه يُشبه إلى حدٍّ كبير الشابَّ الزنجي الفائق الأناقة، الذي جالَسَ الراقصة «بتريشيا» في الفندق، ثم زارها في الكواليس واختفى.

وأيضًا يُشبه إلى حدٍّ أكبر ... إحدى راقصات فريق الزنجيات الحسناوات. والذي زاد عددُه في نفس اليوم الذي اختفى فيه الشابُّ الزنجي ... إلى ست راقصات، رغم أن عددهم خمس راقصات كما رأيتهم أكثر من مرة ...

رقم «صفر»: تقصد أن الشاب الزنجي هو نفسه الراقصة الحسناء؟

عثمان: نعم، هو نفسه «بيزا»؛ لأنها تركَت لي في نفس اليوم كارتًا مع عامل مصعد الفندق مكتوبًا عليه: مع تحيات «بيزا» ...

فقال رقم «صفر» مازحًا: مع تحيات رقم «صفر» ... لقد اتضحت الأمور الآن بعضَ الشيء؛ فإن هذا التمثال يُشبه «بيزا».

ريما: ولكن مَن الذي نحتَه؟ وهل كانت «بيزا» المقصودة ... أم أنها الصدفة؟

أحمد: المهم الآن أن «بيزا» أصبحت قريبة منا جدًّا، بعد تحديد ملامحها، واتضح أن هناك علاقةً مؤكَّدة بين «بيزا» و«مارلو»، وشخص ما في «زيمبابوي» هو الذي نحتَ لها هذا التمثال.

إلهام: ولكنَّ كثيرًا من أهل «زيمبابوي» يُجيدون فنَّ النحت، وبالذات أبناء قبائل الشونا.

لذا سيكون البحث عن ناحت هذا التمثال ... أمرًا عسيرًا.

رقم «صفر»: المهم أن تَخلُدون الآن للنوم ... فأمامكم رحلة طويلة، ومهمة شاقَّة في بلاد أعرض ستارة مائية في العالم.

أحمد: شلالات «فيكتوريا».

رقم «صفر»: نعم وعندها الفندق الذي ستنزلون فيه ... وفقكم الله.

انصرف الشياطين ... كلٌّ إلى غرفته وبداخلِ كلٍّ منهم إحساسٌ عميق بالرضا والحب لذلك القائد رقم «صفر» الذي كان اللقاء معه هذه المرة وديًّا للغاية. وتمنَّوا لو أن تكون كلُّ اجتماعاتهم ولقاءاتهم ... في هذا المقر.

ولفَّ الصمتُ المقر، ولم يَعُد الشياطين يسمعون غيرَ صوت الرياح، وكان هذا آخرَ ما سَمِعه «أحمد» و«إلهام» و«عثمان» قبل أن تنقلهم طائرة هليكوبتر إلى مطار القاهرة، ومنه إلى مطار «هراري» الصغير على متن إحدى طائرات شركة مصر للطيران ... ورغم أن «هراري» تقع في قلب أفريقيا، إلا أن نظافة شوارعها وعصرية مبانيها جعلَت الشياطين يشعرون بأنهم في عاصمة أوروبية في نفس الوقت الذي شعروا فيه أنهم جوعى، فتناولوا طعامهم في أحد مطاعم العاصمة «هراري» والتي تعني في لغة قبائل «الشونا» المدينة التي لا تنام. وكان المطعم يُقدِّم أصنافًا من اللحم المشوي، من صيد براري «زيمبابوي» التي تمثِّل ١٣٪ من مساحتها. وقد جحظَت عينَا «عثمان» حين قرأ بالإنجليزية في قائمة الطعام التي قُدِّمت لهم ... لحم ذيل تمساح، لحم خرتيت، لحم حمار وحشي، لحم نعام، ولحم غزال، وضحكت «إلهام» كثيرًا للتعبير الذي ظهر على وجهه.

وسأله «أحمد» ضاحكًا: ماذا ستأكل من هذا؟

عثمان: خرتيتًا، ثم أكمل ضاحكًا: و«إلهام» نعامة، أما أنت ...

«أحمد» باسمًا: حصانًا، أقصد سأجرِّب لحم الحصان. وأعتقد أن «إلهام» غزالًا، أقصد ... ستفضِّل لحم الغزال.

فابتسمت «إلهام» في حياء، وشكرَته على هذه المجاملة الرقيقة، وصدَّقت على اقتراحه وطلبَت لحم الغزال، وكان انطباعهم جميعًا جيدًا عن الطعام الذي أكلوه بعيدًا عن جنون البقر.

وكان أمامهم وقت، قبل أن يستقلُّوا الطائرة إلى منطقة الشلالات، فقاموا بجولة في المدينة وخرجوا منها إلى حيث حديقة «شابونجو»؛ المتحف المفتوح لفنون النحت «الزيمبابوية» حيث تمثال «بيزا» الذي أثار إعجابهم لمهارة صانعه وشفافية روحه، التي

ظهرَت في ابتسامتها الساحرة ... ولكن لفت نظرهم ... أن التمثال له ذراعان مقطوعان وأنه يُحاكي في هذا ... تمثال آلهة الجمال عند اليونان «فينوس». وتساءلوا ... هل هي حالة من العشق؟ وهل يعني هذا أنهم يستطيعون الوصول لـ «بيزا» ... عن طريق هذا العاشق الفنان.

ورأى «أحمد» أنها محاولة لا بد منها، فحصل من إدارة الحديقة على اسم وعنوان صانع التمثال ... إنه «روبيرت» أحد أبناء قبائل الشونا، وله أسفارٌ عديدة إلى المملكة المتحدة فهو يعمل بالتجارة، بجانب احترافه لفن النحت، وهو يقيم في العاصمة ولكنه هذه الأيام يقيم في البراري في سيارته اللاندروفر، فهي عادته منذ حصل على عدة جوائز عن أعمال فنية في معارض ومسابقات دولية، وأصبحت أعمالُه مطلوبة على مستوى العالم.

فقال «عثمان»: معنى ذلك أننا سنحتاج لسيارة سفاري حتى نستطيع الوصول إليه؟

أحمد: نعم.

إلهام: ولكن ما أدراكم أن هذه «بيزا»؟!

أحمد: «بيزا» في «زيمبابوي»، وهذا التمثال يُشبهها ... وهو أيضًا في «زيمبابوي» وصانعه موجود، فلماذا لا نبدأ بتأكيد هذا الظن أو نَفْيه.

عثمان: وكيف سنصل إليه ومساحة البراري لا تقل عن ٥٠٠٠٠ كيلومتر مربع، ناهيك عن أخطار الأدغال وسط الحيوانات المفترسة والأسود الضارية.

أحمد: إنها محميَّات طبيعية والاستفسار عن السيارات التي تَجُوبها أمرٌ يسير.

إلهام: وهل سنتحرك من هنا في سيارة سفاري؟

أحمد: لا، فلدينا حجزٌ في فندق شلالات «فيكتوريا»، وأرى أننا اليوم متعَبون، ولم يَعُد لليوم بقية غير بضع ساعات فنستقل فيهم الطائرة إلى الشلالات.

إلهام: نعم، ونحصل على حمَّام دافئ.

عثمان: وتنامان.

أحمد: وأنت.

عثمان: لم أنَم حتى نعود إلى مصر.

كانت المسافة بالطائرة من «هراري» إلى مطار مدينة شلالات «فيكتوريا» الأبيض الصغير الواقع وسط البراري قد استغرقَت ساعةً ونصفًا، ومن وراء سور الأسلاك الفاصل بين الغابة والمطار، كانت الغزلان تُتابع الحركة فيه وكأنها تشاهد تصويرَ فيلم. وعلَّق «عثمان» ضاحكًا: إنها في رحلة لحديقة البشر؛ فهذه المرة وقفنا نحن في الأقفاص ووقفوا هم يتفرَّجون.

كان فندق شلالات فيكتوريا من أفخم وأغلى وأقدم الفنادق في «زيمبابوي»؛ فقد أنشأته شركة قطارات جنوب أفريقيا البريطانية عام ١٩٠٤م مع وصول السكك الحديدية لـ «زيمبابوي»؛ فقد كان هناك مشروع استعماري كبير يهدف إلى ربط مصر بطريق رأس الرجاء الصالح عبر خط سكك حديدية يسمى «كايرو-كاب». وبعد أن أنهى «أحمد» إجراءاتِ مراجعة الحجز مع موظف الاستقبال وقبل أن ينصرفوا إلى غُرَفهم، سأله عن إمكانية الحصول على سيارة سفاري للدخول إلى البراري، ولكن الموظف أخبره أنها محميَّة طبيعية، وغير مسموح باستعمال السيارات، أو حتى الدرَّاجات. فتعجَّب الشياطين ... فما سمعوه من إدارة الحديقة غير ذلك، فهل كان مزاحًا، أم أن «روبيرت» هذا حالة خاصة؟

وأصرَّ «أحمد» على أن يتأكد من هذا، فأعاد الكلام على أسماع الموظف، الذي بدَا عليه الارتباك وهو يؤكد له أن القانون يمنع دخولَ أيِّ نوع من التكنولوجيا الحديثة إلى المحميات، أو حتى لمس زهرة برية، أو إزعاج حيوان شارد أو غيره. تظاهرَ «أحمد» بتصديق كلامه، وقد تحركَت حاسَّة الشك في نفسه، وكان الحال هو نفسه مع «إلهام» و«عثمان»؛ بسبب الارتباك الذي ظهر على الموظف بمجرد ذكرِ اسم «روبيرت» ...

وفي طريقهم إلى غُرَفهم والتي سبقَتها إليها حقائبهم، شردَ كلٌّ منهم بأفكاره في اتجاه. وفي الطابق الثاني والأخير للفندق المكوَّن من طابقَين. كانت تقع غرفة «إلهام» وبجوارها غرفة «أحمد» و«عثمان»، الذي ترك «أحمد» سابحًا في أفكاره، ممدَّدًا على فراشه، وهبط الدَّرَج مسرعًا إلى الدور الأرضي خارجًا من بَهْوٍ داخلًا في الآخر حتى بلغ التِّراس الخلفي، ثم هبط الدَّرَج مغادرًا الفندق عبر بوابة في السور السلكي المرتفع، الذي يفصل الفندق عن الغابة، مع تنبيه الحارس الأسود بالعودة قبل ميعاد إغلاق البوابة في السادسة مساء. ففي الظلام تنشط حاسَّةُ الافتراس عند الحيوانات.

وفي الثامنة مساءً ... استيقظ «أحمد» وقد نال قسطًا وافرًا من النوم، فاغتسل في سرعة، وقد لفت نظرَه عدمُ وجود «عثمان» ووجود حقيبته كما هي لم تُمَسَّ، حتى فراشه، ومعنى ذلك أنه لم يُبدل ملابسه، ولم يَنَم ... إذن أين ذهب؟

فرفع سماعة التليفون طالبًا الاستقبال سائلًا عن «عثمان»، فغاب الرجل دقيقة ثم أخبره أن أحدًا لم يرَه من قبل الغروب، فطلب منه أن يوصلَه بغرفة «إلهام» التي شعرَت بقلقٍ بعد الذي سمعَته من «أحمد»، وطلبَت منه أن يلقاها في المطعم. ومن المطعم إلى البوابة، سارَا في سرعة يقصدان الحارس الذي لم يكن موجودًا، فسألَا عنه ضابطَ أمن الفندق، وعرفَا أنه يتناول طعامه في المطبخ، فطلبَا منه أن يوصلهما إلى المطبخ. وهناك عرفَا أن «عثمان» عبَر البوابة إلى الغابة، ولكن الحارس غير متأكد إن كان قد عاد أم لا ...

ضغطَت «إلهام» بيدها في قلق على يد «أحمد» الذي حاول أن يُطمئنَها، رغم قلقه هو، وعاد كلٌّ منهما إلى غرفته مسرعًا، فأخرجَا أجهزة الاتصال الخاصة بهما، وحاولَا الاتصال به فسمعَا صوتَ صفيرِ الجهاز الخاص به يخرج من حقيبته؛ فعرفَا أنه خرج من غيره، ففتحَا الحقيبة عنده ليطمئنَّا على وجود سلاحه معه فلم يجداه بالحقيبة، فطمأنَهُما هذا قليلًا. ثم اتصل «أحمد» بموظف الاستقبال، طالبًا منه الصعود إليه …

وحكى له عمَّا حدث وسأله إن كانت قد وقعَت حوادثُ افتراس لأحد النزلاء من قبل، فطمأَنه أن هذا لم يحدث بالمرة، ولكن هذا لأن النزلاء يلتزمون بتعليمات الفندق، ويعودون قبل السادسة وهو ميعاد إغلاق البوابة، والحادثة الوحيدة التي وقعَت هي السقوط في جرف الشلَّال.

فسأله «أحمد» إن كان هذا يعني أن مَن يعود بعد هذا الميعاد لا تفتحون له؟ فقال الموظف إن هذا غير معقول طبعًا.

أحمد: ولكني لم أجد الحارس عند البوابة، وقد يكون «عثمان» قد عاد ولم يجد مَن يفتح له.

الضابط: أنا لا أظن هذا … وعلى العموم هذا ليس خطأ الحارس.

أحمد: أعلم، ولكننا لسنا في مجال البحث عن المخطئ؛ نحن نريد إنقاذ حياة إنسان.

الضابط: ليس بيدي شيء أفعله؛ فدخول الغابة ليلًا … مغامرة غير مأمونة العواقب.

أحمد: سأدخل أنا.

الضابط: لا … أرجوك … فأنت الآن مسئوليتي، ولن أسمح لك بعبور البوابة.

أحمد: بل ستسمح لي … فلديَّ من الأسباب ما يجعلني لا أصدق قوانينك الصارمة.

الضابط: مثل؟

أحمد: مثل «روبيرت».

جمدَت ملامحُ الضابط، ولم يبدُ عليها تعبيرٌ ما. ولكنه سأل «أحمد» بلا مبالاة مفتعَلة.

الضابط: «روبيرت» مَن؟

فآثرَت «إلهام» أن تنتهيَ هذه المباراة الكلامية بالتصريح بما تعرف قائلة: هناك أكثر من سيارة لاندروفر داخل الغابة، وأنتم الذين قدَّمتم لهم التسهيلات اللازمة لخرق القانون.

بُهت ضابط الأمن لِما يعرفه هؤلاء الغرباء، فجذبها من ذراعَيها في رفق، حيث انتحى بهما جانبًا، قائلًا لهما — همسًا: هذا الكلام خطير، ويُعرِّضنا للمساءلة القانونية.

أحمد: إذن، نريد سيارة للبحث عن زميلنا ... ونحن لا نخرق القانون بل نحن حماتُه، ولكن نحن في ظروف استثنائية، وتلك لها قوانينها الخاصة.

قال الضابط: ليس لديَّ إلا سيارة الدورية.

أحمد: سنستعيرها منك، وقبل الفجر تكون عندك.

ورغم رفض الضابط وخوفه أن يحتاج السيارة ليلًا، أو يكتشف أحدٌ عدمَ وجودها، إلا أن إصرار «أحمد» وتذليله لكل العراقيل التي كان يضعها الضابط، جعله يُذعِن لمطلبهما، وعندما كان يُعِدُّ لهما السيارة كانا يُبدلان ملابسهما، ويحملان أجهزة الاتصال والأسلحة الشخصية استعدادًا لمواجهة مخاطر الغابة.

ومن بوابة جانبية بعيدة عن ساحة الفندق خرج «أحمد» بالسيارة ومعه «إلهام» من نطاق الأمان إلى ٥٠٠٠٠ كيلومتر من المخاطر.

وكما طلب منهما ضابط الأمن لم يُضيئا أنوار السيارة بل أرهفَا السمع، وعلى ضوء بطاريته الذي كان رغم ضعفه الشديد، يُشبه ضوء القمر في ليلة تمامه، سار موقِظًا كلَّ حواسِّه، وكانت السيارة مزوَّدة بكشَّاف مثبَّت بجوار المرآة الجانبية، فأضاءه «أحمد» وأطفأه بسرعة وهو يتوغَّل في الغابة ببطءٍ شديد خوفًا من الاصطدام بجزع شجرة ممدَّد على الأرض، أو السقوط في وحل بقوة اندفاع السيارة فتنزلق العجلات ولا يستطيع الخروج من الغابة ليكون فريسة سهلة لحيواناتها المفترسة إلى جانب الجوع والعطش. وبعد أن ابتعدَا عن الفندق بالقدر الكافي، أضاء «أحمد» الكشاف الجانبي، وحرَّكه بذراع من داخل السيارة ليدور بضوئه باحثًا بين الأشجار عن «عثمان»، ولكن سحابة كثيفة من البعوض الرقيق تجمَّعَت على الضوء فجعلت الرؤيةَ تبدو صعبة. فأطفأه وأضاء الكشافات الأمامية فبدَت له عِيدان الأشجار التي تُغطِّي الأرض أمامه، وكأنها ثعابين تتلوَّى. فقالت له «إلهام»: إننا لم نُحدِّد وجهتَنا بهذه اللاندروفر ولا خططَنا في البحث في هذه الغابة الشاسعة، ومن غير المعقول أن نسير على غير هدًى آمِلين أن نجد «عثمان».

أحمد: لا يا «إلهام»، إن ما يدور برأسي الآن، أن أتحرك في نطاق الفندق في دائرة يزداد قطرُها في كل دورة؛ فأنا أعتقد أن «عثمان» لم يبتعد كثيرًا عن هنا.

فقد دخل الغابة مُترجِّلًا؛ أي بدون وسيلة تُعطيه الفرصة لقطع مسافة كبيرة في هذه المدة البسيطة ...

إلهام: من قبل الغروب حتى الآن، ليست مدة بسيطة.

أحمد: لا تنسَي أنه بمجرد حلول الظلام ستكون حركتُه صعبة، وينبغي أن يكون هذا سببَ عدم رجوعه.

إلهام: تقصد أنه قابعٌ في مكان ما حتى الصباح؟

أحمد: نعم ...

إلهام: إذن يجب إطلاق كلاكس السيارة أو أي صوت يُعبِّر عن وجود إنسان بالغابة ... فقد يكون في خطرٍ ببقائه ساكنًا هكذا، فقد تَحمِل الريحُ رائحتَه إلى حيوان جائع، وهم كثيرون بالغابة، أو قد يهاجمه البعوض الذي تزخر به الغابة وينقل له أمراضًا خطيرة.

أحمد: أو يهاجمه ثعبانٌ سامٌّ أو غيره، ولكني لا أستطيع الإتيان بصوت؛ ففي هذا خطرٌ على رجلِ الأمن وسُمْعَتِه في الفندق.

إلهام: إذن سأفتح زجاج النافذة قليلًا ... وأُطلق صفيرنا المميَّز ... ففي هذا الهدوء سيكون مسموعًا لمدًى بعيد.

واعترض «أحمد» خوفًا من دخول البعوض من النافذة، ولكنها أصرَّت فأنزلت زجاج السيارة قليلًا، وأطلقت من فمِها صفيرًا متقطِّعًا له دلالة معينة بين الشياطين، ثم أرهفَت سمعها فلم تجد استجابة، وأعادَت الكرَّة مرة أخرى، و«أحمد» يدور بالسيارة ببطءٍ في دائرة أوسع مُطلِقًا بين الحين والآخر ضوءَ الكشاف العلوي الذي كان يخترق الغابة بين الأشجار لمسافات بعيدة، ورأى على بُعد جسمًا متحرِّكًا في خفَّة ثم اختفى بسرعة.

فقال لـ «إلهام»: «فهد».

فقالت له: إنه بعيد عنا.

أحمد: لا ... بل هنا وعلى جسمه بقعٌ بُنِّيَّة. وفي نفس اللحظة شعرَا بجسد ثقيل يسقط فوق سقف السيارة.

الاستعانة بالفهد!

تعلَّقت عينَا «إلهام» بعينَي «أحمد» الذي أوقف السيارة تمامًا، وجحظَت عيناه في ترقُّب، و«إلهام» تسأله في صمت، وقد اقتضب جبينُها: ماذا حدث؟ و«أحمد» يضمُّ شفتَيه تعبيرًا عن عدم قدرته على التخمين، ولكن عاد وقال لها هامسًا: قد يكون الفهد.

إلهام: أيُّ فهد؟

أحمد: الذي رأيتُه الآن يمرُّ بعيدًا عن الضوء ... أغلقي الزجاج فرائحتُه خانقة، واربطي حزام الأمان.

لم تكَد «إلهام» تفعل هذا حتى اندفع بالسيارة إلى الأمام في قوة ثم توقَّف فجأة فلم يستطع الفهد حفظَ توازنه، وقفز أمام السيارة، وقبل أن يتحرَّك «أحمد» بها مرة أخرى كان الفهد قد قفز على مقدمتها، فاردًا ذراعَيه على الزجاج الأمامي، وهو يزوم في شراسة. وفي محاولة للتسرية عن «إلهام» ... سأل «أحمد»: «إلهام»، لا تقولي إنكِ غير خائفة؛ فلو كنتِ «روبوت» ... ستشعرين بالخوف.

إلهام: لستُ خائفةً ... صدِّقني؛ فالسيارة مغلقة علينا، ولن يستطيع الوصول لنا، ولكن ما يُخيفني حقًّا هو فكرة وجود هذا الفهد هنا و«عثمان» وحده بالعراء.

أحمد: لو كان قد هاجمه لسمعنا صوتَ الرصاصات.

إلهام: وهل سيُمهله لهذا؟

أحمد: أو صوت صراخ.

في هذه اللحظة علا صوتُ صراخٍ مخيف لم يلبث أن اختفى، ثم سمعَا صوت حشرجة صوت، ثم اختفى تمامًا، أعقبه صوتُ جسم يُجَرُّ على الأرض وأصوات أعواد تنكسر تحته، وكان الفهد قد قفز تاركًا السيارة وبها «أحمد» و«إلهام». وقد ازدحم رأساهما بالأفكار

والأسئلة واختلطَت في قلبَيهما المشاعر، ما بين جزعٍ وخوف على «عثمان» ورغبة في معرفة ما يحدث، وقلق من نفس المصير؛ فهما الآن لا يعرفان إلى أين وصلوا، وهل سيكفي الوقود بالسيارة لعودتهم؟

وانتبهَا على صوت عراك بين صائد ومتطفِّل، لصٌّ يريد غنيمةً لم يتعب للحصول عليها، وصاحب حق بذل جهدًا ليأكل. ولكن تُرى ما الذي يتعاركان عليه؟ واقشعرَّ بدنُ «إلهام» لفكرةٍ دارَت في خاطرها ... أبعدَتها في جزع وهي تنفض رأسها، وكأنها تطرد عنها البعوض القاتل، ودَعَت في سرِّها أن يحفظ الله «عثمان». ثم التفتت إلى «أحمد» تسأله قائلة: تُرى ما الذي دفع «عثمان» لدخول الغابة؟!

أحمد: الشغف ... وحب الاستطلاع، فأنتِ تعرفين «عثمان».

إلهام: إنها صفتُنا جميعًا، ولكننا لا نندفع هكذا بلا ترتيب أو تفكير. أنا أعتقد أن هناك أمرًا آخر.

أحمد: ما هو؟

إلهام: ليتني أعرف.

هدأت الحركة تمامًا في الغابة مرة ثانية، ورأت «إلهام» ألَّا تُعيدَ محاولة إطلاق الصفير مرة أخرى، فمِن غير الممكن أن يوجد «عثمان» وهذا الفهد في مكان واحد.

فعلَّق «أحمد» قائلًا في ابتسامة: نعم ... وإلا أكل أحدهما الآخر. ورغم حرج الموقف، ابتسمت «إلهام» وهي تنظر في وُدٍّ قائلة: إنك قويُّ الأعصاب جدًّا يا «أحمد» ... وفي محاولة منه للتسرية عنها جاوبها قائلًا: وأنتِ شجاعة جدًّا؛ وذلك لتواجدك في هذه الغابة المخيفة. فابتسمَت وأطرقَت برأسها، قائلة: سلِّط الكشَّاف الجانبي على آثار المعركة التي تمَّت منذ قليل، لنعرف نوع الضحية.

أحمد: لا أعتقد أنه ...

«إلهام» في رجاء: أرجوك يا «أحمد» لكي أطمئن.

لم يكن «أحمد» يملك في تلك اللحظة إلا أن يندفع بالسيارة في اتجاه الصوت الذي سمعاه ... ثم أضاء الأنوار الأمامية، فرأيَا مجموعة من الضباع تبتعد في تردُّد، وقد كانت تحيط بعظام يَعْلَق بها بعضُ اللحم، فأضاء «أحمد» الكشاف الجانبي وحرَّكَهُ ذهابًا وإيابًا على الأعشاب محاولًا البحث عن معالم الجثة حتى تدلَّهم على صاحبها؛ فلاحظ أن الهيكل العظمي الممدَّد يُشبه هيكل الانسان ولكن ما يلفت النظر أن ذراعَيه طويلتان ... إنه قرد من نوع «البابوم» ...

قالت «إلهام» وكأنها عثرَت على «عثمان» ونسيَت أنه لا يزال ضائعًا في الغابة: إنني متفائلة وسعيدة جدًّا هذه الليلة.

أحمد: ولكننا لم نجده بعد …

إلهام: سنجده؛ صدِّقني … ثم سألته قائلة: أليس معنا ماء للشرب؟

أحمد: لم أضع في حسباني هذا، ولكن قد تجدين تنكًا في مؤخرة السيارة به الماء اللازم لتزويد الردياتير.

وفي مؤخرة السيارة وجدَت «إلهام» تنكًا به مياه عذبة وترمسًا … وبعض الأكواب، فصاحَت في صوت خفيض قائلة: إن السيارة مجهَّزة يا «أحمد». ثم عادت إلى مقعدها مرة أخرى، فتحت الترمس فوجدت به شايًا مُحلًّى، فملأَت كوبَين وطلبَت من «أحمد» أن يوقف السيارة ليشربَا الشاي ويفكران في هدوء فيما يمكن عمله، غير السير على غير هدًى، ثم فتحت الراديو و«أحمد» يحرِّك المؤشر يمينًا ويسارًا باحثًا عما يُسرِّي عنهما من الموسيقى الناعمة أو غير ذلك، فأثار انتباهَه موجاتٌ لاسلكية شفرية، شديدة القِصَر، فقام بتسجيلها على يده محاولًا حلَّها، إلا أنه لم يَصِل إلى مفتاح رموزها، وهذا يعني أنها ليست لهم. فتساءل: مَن الذي يحتاج إلى شفرة لإرسال رسالة؟

إلهام: أتظن أن في الأمر جاسوسية؟

أحمد: هذا احتمال بعيد … فـ «زيمبابوي» بلد فقير … ولكن هناك احتمال آخر …

إلهام: أن تكون هناك قوًى خارجية تُحرِّك عناصر داخل البلاد لقلب نظام الحكم مثلًا؟

أحمد: أو ممارسة فعل غير قانوني، من شأنه الإضرار بمصلحتها.

إلهام: أو اتخاذها قاعدة لتحريك عناصر خارجة على القانون في الدول المجاورة.

أحمد: إذن، فهي «بيزا» يا «إلهام»؛ إنها فرقة الاغتيالات.

لاحظَ «أحمد» أن الإشارات تبتعد مع حركة الرياح، فحرَّك المؤشر لتتبُّعِها، فالتقطَت أذناه صوتًا رخيمًا لمذيعة تتحدث الإنجليزية … فأنصت إليها فهَالَه ما سمع.

إنه وصفُ إطراء يضع «روبيرت» في غير موضعه، ويُسبِغ عليه ما لا يستحق من الثناء والمديح مما يؤكد أنها تابعة له شخصيًّا … وتبث هذه الأفكار والبرامج لحسابه. ومن هنا كان تساؤل «إلهام» … عن القصد من وراء ذلك؟

أحمد: من الواضح أنهم يحاولون صُنعَ مكانة خاصة له … ليتمكَّنوا عن طريقه من تجنيد ما شاءوا من العملاء لتنفيذ أغراضهم.

إلهام: وقد نجحوا ... وهذا يتضح من سلطته في اختراق القانون ... ودخول المحميات بالسيارات هو وأعوانه.

أحمد: إن لم نجد «عثمان» هنا فأنا أشك أنه عند «روبيرت». ولنواصل البحث عنه. قالها وهو يُدير السيارة التي لم تتحرك إلى الأمام ولا إلى الخلف، فاطمأنَّ إلى أن كلَّ شيء على ما يُرام، ثم كرَّر المحاولة، فكانت مثلَ سابقتها، فأضاء النور الأمامي وابتسم في دهشة لِما رأى؛ فقد كان أحد الفيلة ... ضخم الحجم ينام مستندًا على مقدمة السيارة، فحوَّل الكشاف الجانبي إلى الخلف وأضاءَه فوجد فيلًا آخر ... ينام مستندًا على مؤخرتها. وعندما التفت إلى «إلهام» وجد القلق واضحًا عليها، فقال لها: لا تقلقي سنجد حلًّا ... فأنا لا أستطيع انتظار الفِيَلة حتى تستيقظ، فقبل الصباح يجب أن تكون السيارة في الفندق.

إلهام: ما يُقلقني هو «عثمان»؛ فالوقت يمرُّ دون الوصول إلى طرف خيط يقرِّبنا منه.

ورغم ما كانَا يشعران به من إرهاق، إلا أنهما ظلَّا يفكران في وسيلة للتخلُّص من هؤلاء المراقبين. ولم يجد «أحمد» مفرًّا من الاستعانة بالفهد الذي هاجم السيارة من قبل، فأضاء نور السيارة الأمامي ... والكشاف الجانبي ليُقلِق منامه، إن كان قد نام، فهو يشعر أنه لم يبتعد كثيرًا، وأنه يترصَّدهما من قريب آملًا في اصطيادهما. واقترحت «إلهام» أن تفتح زجاج السيارة كي تحمل الرياح رائحتهما إليه ... فهذا سيُثيره أكثر.

ولكن «أحمد» لم يكتفِ بهذا، بل نزل من السيارة ليستطلع الموقف، إلا أن الفهد لم يُمهله، بل خرج من الظلام قافزًا عليه، ولولا انبطاح «أحمد» على الأرض لكان في أحضان الفهد، فانتفض يقوم مسرعًا ليعود إلى السيارة، ولكن الفهد سبقه بقفزة شيطانية أخرى فقطع عليه الطريق إلى الباب ... فتحت «إلهام» بابها وقد أخذَتها المفاجأة وصوَّبَت مسدسها إليه، إلا أن «أحمد» صاح فيها بألَّا تفعل ... فصرخَت فيه قائلة: هذا هو الحل الوحيد. فأثارَت صرختُها الفهدَ، فاستدار لها، وكانت الفرصة الوحيدة لـ «أحمد» ليقفز داخل السيارة مغلِقًا البابَ خلفه في الوقت الذي أغلقَت فيه «إلهام» بابَها وهي تنظر له غير مصدِّقة، والعرق يتصبَّب منها، والفهد ينظر لها في غيظ. في هذه الأثناء كانت الفيلة قد توارت لتُتابع الموقف عن بُعد ...

فأدار «أحمد» السيارة وانطلق مسرعًا قائلًا لـ «إلهام»: لن ينقذ «عثمان» إلا طائرةُ هليكوبتر، المهم أن نستطيع معرفة طريق العودة.

إلهام: سنهتدي بالنجوم؛ فمنذ خروجنا من الفندق وأنا أراقبها، المهم أن نَصِل قبل أن تختفيَ في الفجر. ورغم إعجاب «أحمد» برجاحة عقل «إلهام»، إلا أن هناك مَن لم يعجبه ما وصلَا إليه.

فقد سمع صوتَ ارتطام جسم صلب بالعجلة الخلفية للسيارة أعقبه صوتُ خروج الهواء بقوة من ثقب صنعَته رصاصةٌ أُطلقَت من مسدس مزوَّد بكاتم للصوت، أو سهم صُوِّب بدقَّة، مما يعني أن هناك مَن يراقبهما منذ وقت طويل منتظرًا نهايتهما إما بالضباع وسط البراري، أو بين أنياب الوحوش الضارية التي تمتلئ بها الغابة.

كان القرار صعبًا، ولكن لم يكن هناك مفرٌّ منه؛ فالسيارة لن تتحرك إلا بتبديل العجلة بأخرى سليمة، ولكن كيف سيتم ذلك في هذا المكان الخطير؟

كانت هناك شجرة ضخمة على مرمى بصر «إلهام» تُثير انتباهَها لضخامتها وكثرةِ جذورها المعلَّقة والتي تتدلَّى من قِمَّتها، مختفية بين أطرافها السفلى بعض الحشائش.

فأوحَت لها بفكرةِ استغلالها كحائط لحماية ظهر «أحمد» عند استبدال العجلة، وقد أعجبت الفكرةُ «أحمد» إلا أنه تخوَّفَ أن تكون سكنًا لحيوان مفترس، أو أن يكون الفهد قد اتخذها بُرجًا لمراقبتهما.

فسلَّط عليها الكشاف الجانبي للسيارة ماسحًا إياها من قمَّتِها إلى قاعدتها، وإذا بجيش من الحشرات الطائرة، قد أثاره الضوء فأحاطها كالغمام ... مما دفعه للتراجع عن الفكرة، ولكن «إلهام» رأت أن وجود هذه الحشرات هو أفضل أسلحة الدفاع ضد الحيوانات في الغابة ... ومن مؤخرة السيارة حصلَت على بعض الأكياس البلاستيك فغطَّت يدَيها ورأسها وكذلك «أحمد»، وبجوار الشجرة ... أوقفَا السيارة وتركَا الكشاف مسلَّطًا عليها مما جعل الحشرات في حالة هياج، وقد نجحت هذه الفكرة في تأمين «أحمد» حتى انتهى من تغيير العجلة. فتنفَّست «إلهام» الصُّعَداء، ولم تُعِد مسدسها إلى جرابه، إلا بعد أن عاد «أحمد» إلى السيارة، وانطلقا مرة ثانية في حذر عائدَين إلى الفندق، وقد نال منهما التعب.

فآثرَا الصمت، وبداخل كلٍّ منهما كثيرٌ من الأسئلة ... وأولها: هل هناك مَن لا يزال يطاردهما؟ ومَن هو؟ وكيف يتحرك في الغابة في هذا الوقت دون سيارة تحميه، أم تُراهم على مقربة من مقر «روبيرت» أو بعض أعوانه؟

ولم يكن «أحمد» يدري أنهم قريبون من الفندق إلى هذا الحد ... فبعد مسيرة حوالي ربع ساعة، ظهر على مرمى بصره السياج الذي يحيط به ويفصله عن البراري، وقد استقبلهما ضابطُ الأمن بحفاوة وارتياح ظاهر؛ فقد استعاد السيارة قبل ميعاد تغيير الوردية، وعندما حاول التحدث مع «أحمد» وسأله عما جرى، اعتذر له؛ فقد كان مرهقًا للغاية، وصعد إلى غرفته مودِّعًا «إلهام» التي سارعَت الخطى إلى غرفتها، وارتمَت دون أن تُبدِّل ملابسها ... على السرير لتروح في نوم عميق.

وفي الصباح ... ورغم الستائر التي غطَّت النوافذ، إلا أن ضوء الشمس غمر غرفة «أحمد» وداعب عينَيه، فأقلق منامه الذي أيقظه منه طرقاتُ عامل الفندق، وقد أحضر الشاي في الميعاد الذي حدده، وقبل أن ينصرف العامل، استوقفه «أحمد» يسأله: ألم نلتقِ من قبل؟

العامل: لا ... لا ... لم يحدث يا سيدي.

أحمد: ولكني متأكد أننا التقينا من قبل.

العامل: هل نزلت عندنا من قبل؟

أحمد: لا، هذه أول مرة.

العامل: إذن؛ لم نلتقِ من قبل.

في هذه اللحظة ... سمع على الباب طرقات، فأذن لمن يطرق بالدخول.

ففتحت «إلهام» الباب وهي تقول له: ألا زلتَ نائمًا؟

وقد كان ظهر العامل الأسود لها، فاقتربت منه تسأله: أشعر أني قد رأيتك في مكانٍ ما من قبل ... وأن وجهك مألوف لي ...

أحمد: أليس كذلك؟

إلهام: نعم ...

ثم دارَت حوله لتُواجهَه، فرفع إليها العاملُ وجهَه في ثقة مصطنَعة أحسَّتها «إلهام» فسألته: ألم ترَني من قبل؟

العامل: أهذا الأمر هامٌّ إلى هذا الحد؟

أحمد: منذ متى وأنت تعمل هنا؟

راغ العامل من «أحمد» فلم يُجب على تساؤله، وتركه خارجًا في عُجالة ... فناداه ليسأله عن اسمه، إلا أنه لم يُجبه. فاتصل بإدارة الفندق ليسألهم عنه، مدَّعيًا أنه اقتحم عليه الغرفة دون استئذان.

وكانت حيلة منه ليحصل عليه ... إلا أن المسئول أبلغه بأنهم لم يُرسلوا له أحدًا، وليس لديهم عاملٌ بهذه المواصفات. فطلب منهم عدمَ السماح لأحد بمغادرة الفندق، وإلا سيُبلغ البوليس، ثم ارتدى ملابسه في سرعة، ونزل وفي إثره «إلهام»، يسأل موظف الاستقبال وضابط الأمن، ولكن لم يَصِل معهما لشيء. فطلب منهما جمْعَ العاملين بالفندق، وسؤالهم عن هذا العامل، فرجاه المسئول بالفندق بأن يتمَّ هذا الأمر في مكتبه، وفي هدوء حتى لا يُزعجَ النزلاء، لكن أحد ضباط الأمن اعترض على كلِّ ما يتم وطلب عدم تصديق النزيل

— يقصد «أحمد» — فليس لديه دليلٌ على صحة ما يقول. وكادت «إلهام» أن تتدخَّل لتؤكد صحة ما رواه «أحمد» إلا أن فكرةً طرأت على بالها ... جعلَتها تقفز السلالم صعودًا إلى غرفتها، فوجدتها وقد تبعثرَت بها حاجياتها مما يدل على أنها تعرَّضت للتفتيش ... فهرولت إلى غرفة «أحمد»، فوجدتها على نفس الحال، فاتصلت بإدارة الفندق، فهرع إليها المسئولون وضابط الأمن وقبلهم «أحمد» الذي أصرَّ على إبلاغ الشرطة بما يحدث ... فضابط أمن الفندق قد اتهمه من قبل بادعاء الأكاذيب، فاعتذر له المسئولون ووعدوه باتخاذ الإجراءات اللازمة، إلا أنهم لم يطلبوا من ضابط الأمن هذا الاعتذار له، بل تركهم دون استئذان وانصرف ... مما جعل «أحمد» يرتاب في أمره، فانصرف على إثره يتابعه عن بعد ... إلا أن صوت خطوات تتحرك خلفه متلصِّصة جعلَته يتوارى في أحد الممرات الجانبية، وبعد ثوانٍ رأى العامل الذي يبحثون عنه، وهو يسير على أطراف أصابعه.

السقوط في الشلال الوحشي!

حسم «أحمد» المعركة بينه وبين الشاب الزنجي لصالحه، ونوى أن يسلِّمَه لمسئولي الفندق، لكنه عاد وتراجع؛ فقد يضيع منه طرفُ الخيط الوحيد الذي سيُوصله لـ «عثمان» و«بيزا» و«روبيرت»، فساقه إلى غرفة «إلهام» التي تركَتها مفتوحة ... بعد حادث التفتيش، فقيَّده إلى سور البلكونة الحديدي.

ووقف ينظر إليه قليلًا قبل أن يسأله قائلًا: لماذا هربت؟

فامتنع عن الإجابة، فكرَّر السؤال، ولكنه أيضًا لم يُجب.

فقال له: بيني وبين من أعرفه أظن أنه أنت ... شارب ... فاسمح لي أن أخلِّصك منه.

نظر الشاب له في قلقٍ بالغ، فتركه وذهب إلى غرفته ليُحضرَ ماكينة الحلاقة، وكان كلُّ مَن بالغرفة قد غادروها ... ما عدا «إلهام»، فأخبرها بما حدث وهو يبحث عن ماكينة الحلاقة، ووسط الفوضى التي خلَّفَها تفتيش الغرفة، وقد كانت «إلهام» أسرع في الوصول إليها. فعادَا سويًّا إلى العامل المزيَّف المقيَّد؛ فلم يجدَا إلا كارتًا مُلقًى مكانه مكتوبًا عليه: مع تحيات «بيزا» في «زيمبابوي». كانت المفاجأة مثيرة؛ فهل إلى هذا الحد هم قريبون من «بيزا» ... أم أن الشابَّ خلَّص نفسه وترك لهم هذه الرسالة وهرب ...

وكان ظهر الكارت عبارة عن صورة فوتوغرافية لتمثال «بيزا» يتوسَّط بعضَ التماثيل في حديقة «شابونجو» مما دفعهما للظن بأن تكون «بيزا» رمزًا لهذه الجماعة، وليست هي التي زارتهم، وخلَّصَت العامل المزيَّف. ورأى أحمد أنه لا جدوى من المطاردة في الفندق، فلن يلحقَا به ولن يستطيعَا العثور عليه، وسط كل هذه الممرات، ومع وجود موظف الأمن المتواطئ معه. وفي رُسغه، شعر بوخزٍ من ساعة يده فرقص معه قلبُه طربًا، فضغط زرًّا أسفل الشاشة للساعة وتلقَّى رسالة من «عثمان» يُخبره فيها أنهم مطاردون منذ سؤالهم

عن «بيزا» و«روبيرت» في حديقة «شابونجو»، وأنه طارد «مارلو» وكان متخفيًا في شارب، واستطاع الوصول عن طريقه لـ «روبيرت» وأعوانه.

أما «بيزا» فلم تظهر حتى الآن ولكنها ستكون بصحبة «روبيرت» وبعض أصدقائه الأوروبيِّين في زيارة لشلالات فيكتوريا مساء اليوم، ثم ختم الرسالة قائلًا: «سألقاكم في الطائرة ٤٤٥ المتجهة إلى هناك في السادسة، «عثمان».»

تنفَّسَت «إلهام» الصُّعَداء وهي تقول: نعم؛ إنه «مارلو».

أحمد: تقصدين العامل المزيَّف؟

إلهام: ومَن غيره؟ إن الفرصة مواتية لنا للقبض على «بيزا» و«روبيرت».

أحمد: المهم أولًا أن نتصل برقم «صفر»؛ فليس لنا هنا سلطة الاعتقال.

إلهام: ولكن «روبيرت» ليس لدينا عليه قرائن نقدِّمها للشرطة في «زيمبابوي».

أحمد: يكفي أنه يحمي «بيزا» وهي مطلوبة من الشرطة المصرية عن طريق الإنتربول.

إلهام: سيدَّعي أنه لا يعلم عنها شيئًا، وأظن أنه سيحميها.

أحمد: ولم يخبرنا «عثمان» من أين سنستقل الطائرة إلى شلالات فيكتوريا؟

«إلهام» وهي ترفع سماعة التليفون: سأتصل بإدارة الفندق وأعرف.

وكانت المعلومات التي حصلت عليها «إلهام» من إدارة الفندق سخيَّة ومثيرة؛ فقد عرفت أن شلالات فيكتوريا التي يُطِلُّ عليها الفندق هي أجمل شلالات العالم؛ حيث تصنع ستارة مائية عرْضُها ١٧٠٠ متر وارتفاعها من أعمق نقطة للسقوط ١٠٨ أمتار ... وتصطدم مياهُه بالصخر، فترتد رذاذًا كثيفًا، يصنع العديد من أقواس قزح المتعددة الألوان الفائقة الارتفاع، ولأنه يصعب رؤية قمَّة الشلال ومجرى مائه قبل السقوط فإن زائري «زيمبابوي» يحرصون على ركوب الهليكوبتر من «سفاري لودج» وهو اسم الموقع الذي تُقلِع منه الطائرات، وهو لا يرقى إلى مستوى المطارات؛ ليشاهدوا السفاري، وقمَّة الشلال وغيره. وعرفتْ أيضًا أن هناك سيارة ستُقِلُّهم إلى «سفاري لودج» عند الحجز، فطلبت منهم حجزَ مقعدين على الطائرة، وبعد أن أخبرها الموظف بمواعيد قيام الطائرات وأرقامها، وعرفت أيضًا أن هناك جسرًا معلَّقًا يمكنهم منه رؤية الشلال، بالقرب من الفندق.

أثارَت الفكرة «أحمد» وقد رأى أن اليوم في أوله، وميعاد قيام الهليكوبتر ... ونهاية المهمة لا يزال بعيدًا، وأن أمامهم فرصة لرؤية الشلال من أسفل، وقد شجَّعتْه «إلهام» على هذه الرحلة القصيرة إلا أنها طلبت منه الحذر ... فلا أحد يعلم أين يختبئ لهم «مارلو» أو أعوان «روبيرت».

وعبر السور السلكي المرتفع الذي يفصل الفندق عن الغابة، انطلق «أحمد» و«إلهام» يقطعان الطريق بين الأشجار الكثيفة والأوراق سيرًا على الأقدام، والتي كانت تُسبِغ مشاعر الغموض على الغابة، وكأن الفهد الذي حاورهم بالأمس لا زال يترصَّدهما، وسط هذا السكون الذي لا يقطعه إلا حفيفُ أوراق الشجر التي يحرِّكها الهواء. وإلى أن بدأ صوت الهدير يَصِل ضعيفًا إلى أسماعهما ويزداد قوة كلما اقتربا من الشلال، حتى صار رعدًا ممدودًا، ووسط مشاعر الدهشة رأيَا رذاذَ الماء يرتفع من مسقط الشلال يجتاح ملابسهما وجسدهما … وعندما نظرت «إلهام» إلى «أحمد» لم تجده أفضل حالًا منها، لكنه كان شاخصًا ببصره في موقع عندما وقعَت عيناه عليه، صاحَت قائلة: لا يا «أحمد» لا داعي … ولكن صوتها ضاع مع رعد هدير الشلال. فعادت تصيح بكل قوتها قائلة: الهبوط هنا خطر … وليس أمامنا وقتٌ لذلك.

فنظر إليها «أحمد» مبتسمًا، وهو يعتصر شعره المبلَّل بيديه، ثم أجابها بإشارة من يده فردَّت عليه قائلة: لا تنسَ موعد الطائرة.

أحمد: لا زال لدينا وقت.

وأمام إصراره ونزولًا على رغبته، ذهبت معه تستطلع هذا المهبط الصخري الذي كان عبارة عن درج منحوت في الصخر هابط إلى قاع الشلال البالغ عمقه أكثر من مائة متر، مما دفع «إلهام» للاعتراض على النزول وسط فيض الماء المتصاعد منه رذاذًا، وفي مواجهة هذا الهول المسمى بالشلال الوحشي، ولكن إصرار «أحمد» وحماسه كانَا أكبر من اعتراضها. وسانده في ذلك أمرٌ صدر لهما من رجل مسلح طلب منهما ألا يلتفتَا إليه حتى لا يتردَّدا في النزول.

كان «أحمد» بعيدًا عنه فلم يصله صوتُ التهديد؛ فقد كان صوت هدير الماء أعلى بكثير. فدار حول قمة الدرج الصخرية وبدأ الهبوط بحذر، وخلفه ورغمًا عنها وتحت تهديد السلاح كانت «إلهام» تدور حول قمة الدرج، وحين التفت «أحمد» ليطمئن عليها، رأى خلفها هذا الرجل المسلح، الذي أشار له يأمره بمواصلة الهبوط، وكما تعلَّم وتدرَّب «أحمد» ففي حالة مواجهة خطرَين عليك بالحذر من الأقل عقلًا أولًا، وقد كان الشلال هو الهول الذي لا يفكر، فإذا ما انشغل عنه لحظة ابتلعه.

لذا … فقد واصل هبوط الدرج، وهو منشغلٌ بألَّا تنزلقَ قدمُه على صخر هذا الدرج المبتل المنزلق، وخلفه كانت «إلهام» تهبط الدرج، مطبقةً لنفس القانون المنطقي، وتاركةً النتيجة للوقت. وكلما زادت مسافة الهبوط، ازداد شعورهما بالرغبة في النوم؛ فدوامة الهدير الراعد وسط هذه الشلالات الساقطة لها تأثير منوِّم، وليس لهما مخرجٌ من هذا

غير أن يُركِّزا ذهنهما في أن يظلَّا يقظَين. وقد رأى «أحمد» أنها فرصة للتخلص من هذا الغريب الذي يُهدِّدهما؛ فهو منشغل بمراقبتهما؛ لذا سيكون من السهل خضوعه لتأثير الشلال. فواصل «أحمد» الهبوط، وواصل الرذاذُ السقوطَ عليه فابتلَّت ملابسه حتى شعر أنها أصبحت عبئًا عليه. ووسط هدير الشلال الذي يصمُّ الآذان؛ علا صوتُ الرجل يأمرهما بالتوقف.

لم يلتفت إليه «أحمد» وواصل الهبوط، فاختلط صوت الرجل مرة أخرى بصوت الهدير يأمره بالتوقف فلم يُصغِ إليه. فعلَا صوتُ طلقة من مسدسه في اتجاهه فتوقف ملتفتًا إليه، فرآه وقد نال منه التعب يقاوم السقوط في وقفة غير متَّزِنة، فعرف أنه مهما حاول التصويبَ بدقَّة فستخيب رصاصاتُه. فأصرَّ أن يستدرجَه إلى قاع الشلال؛ حيث لن يستطيع الاستمرار في مقاومة التأثير المنوِّم له. وكانت «إلهام» تتابع ما يحدث في غير اكتراث؛ فما يهمُّها في هذا الوقت هو الحفاظ على يقظتها كاملة، إلا أن الرجل الذي لم يجد من «أحمد» فائدة صرخ فيها قائلًا: إن لم يتوقف هو وأنتِ عن الهبوط فستهبطَا في قاع الشلال جثتَين.

فتعجَّبَت «إلهام» من إصراره على النزول خلفهما، ولماذا لم ينتظرهما بالخارج، وفي نفس الوقت يطلب منهما عدمَ مواصلة الهبوط ... بدأ «أحمد» يشعر بالتعب، وبأن الوقت يمرُّ وميعاد الطائرة قد اقترب، وراوده سؤال هو: هل هدف هذا المسلح هو ألَّا يلحقَا بالطائرة؟ إذن فليس لديه أمرٌ بقتلهم، فشجَّعه هذا على مواصلة الهبوط، وكانَا قد قطعَا أكثر من سبعين مترًا.

حتى بدَا لهما الشلال وكأنه يسقط من السماء، وحين رآهما الرجل ينظران لأعلى رفع رأسه أيضًا لأعلى فاختلَّ توازنه واختلطَت بصوت هدير الشلال ... صرختُه وهو يهوي إلى قاعه ليضيع وسط مياه نهر «الزامبيزي».

وكانت رحلة الصعود شاقَّة؛ فقد نالهما التعب، وارتخَت عضلات سيقانهما، وأصبح الحفاظ على التوازن فوق هذه الدرجات الصخرية المبتلَّة، يتطلَّب بذلَ جهد فوق طاقتهما، هذا غير صخب شلال الماء الساقط وتأثيره المنوِّم الذي يستهلك هو الآخر طاقةً كبيرة لمقاومته. على قمة الدرج ارتمَت «إلهام» وبجوارها «أحمد» والإجهادُ بادٍ عليهما، ولولا عربات «الريكشا» ... ما تحرَّكا، وهي عبارة عن كرسي له عجلتان كبيرتان يجرُّه رجل، ارتمى عليه «أحمد» وخلفه عربة أخرى بها «إلهام»، فهو لا يسَعُ إلا لفردٍ واحد فقط، وكانت رحلة العودة بطيئة، هذا ما شعرَا به. فقد اقترب موعد الطائرة وهما على غير

استعداد لها، وفي الفندق أبدلَا ملابسهما، بعد أن حصلَا على حمَّامٍ دافئ وتناولَا على عَجَل طعام الغداء، وصعدَا إلى غرفتَيهما لينالَا قسطًا يسيرًا من الراحة، بعد أن طلبَا من موظف الاستقبال الاتصال بهما عند حضور العربة التي ستُقِلُّهما إلى «سفاري لودج» حيث سيستقلان الطائرة.

لكن تأثير شلالات فيكتوريا المنوِّم، والذي قاوماه وهما في مواجهته قهَرَ مقاومتهما وهما على أسِرَّتهما، فراحَا في سُباتٍ عميق. استيقظ «أحمد» منه على أثرِ حلمٍ مخيف، رأيَا فيه وشعر أنه يسقط من قمَّة الشلال إلى قاع نهر «الزامبيزي»، ورغم أن الحلم راوده أكثر من مرة في هذه المدة القصيرة التي نامها، إلا أنه هذه المرة شعر وكأنه قد اصطدم بقاع الهُوَّة السحيقة التي يهوي إليها الماء، فارتطم بصخرة بها وشعر بعدها بصداع شديد، فاتصل بإدارة الفندق يطلب فنجانًا من القهوة، وسأل عن السيارة الميكروباص التي ينتظرها، فأخبره الموظف بأنها مرَّت منذ قليل وانصرفَت دون أن تحمل أحدًا من النزلاء ... فتعجَّب «أحمد» لِما حدث وأنَّب الموظف المسئول لذلك، وغادر الغرفة مسرعًا حيث أيقظ «إلهام». وتوجَّها على الفور إلى إدارة الفندق فقدَّما شكوى مكتوبة، وتهديدًا بأن يشكوَهم للمسئولين بسبب الإهمال المتعمَّد ...

وكان اعتذار مدير الفندق كافيًا لأن يُقنعَ «أحمد» بأن ما حدث ليس إهمالًا منهم ولكن بتدبير من أحد أعوان «بيزا»؛ ودليل ذلك أن إحدى سيارات الأمن بالفندق، حملَتهما إلى مقلع الطائرة بأمرٍ مباشر من مدير الفندق ... وقد كان يقودها موظف الأمن الذي اتهم «أحمد» بالبلاغ الكاذب، مما أثار قلقَه وشكَّ في أنهما سيلحقان بالطائرة، فهو يشك أن هذا الرجل ... من أعوان «روبيرت». وقد حدَّثَته نفسه بأن يُقيِّده في السيارة ويقودها هو إلى المطار، ولكنه تراجع لأنه لا يعرف الطريق، ولكن «إلهام» وكأنها كانت تقرأ أفكاره همسَت له قائلة: من الممكن أن يدلَّنا على الطريق تحت تهديد السلاح. وكأنها كانت الإشارة، فأخرج «أحمد» مسدسه وألصقه بظهر السائق ... وأمره بالتوقف، فلم يلتفت إليه، وكأنه يعرف أنهما في حاجة إليه لمعرفة الطريق، فقال له «أحمد»: نحن نعرف أنك ستؤخرنا عن ميعاد الطائرة ولذلك لن يهمَّنا وجودُك ... فالنتيجة واحدة. ثم بدأ «أحمد» و«إلهام» في تهديده، وأمسكَته «إلهام» من يده وضغطَت بقوة فصرخ الرجل متألِّمًا، فصاح فيه «أحمد» طالبًا منه أن يرسم له خريطة الوصول إلى مقلع الطائرة على عجل. كادت السيارة تصطدم بإحدى الأشجار العملاقة، إلا أنه توقَّف بها في آخر لحظة، وترك كرسيَّه لـ «أحمد» طالبًا منه القيادة على أن يدلَّه هو على الطريق. فنظر له قليلًا محاولًا قراءة ما يدور بذهنه،

ثم عاد وأصرَّ على أن يرسم الرجل لهما خريطةً واضحةَ المعالم وينتظرهما في البراري، ويواصلَا هما الرحلة، فإن وصلَا وكانت الخريطة صحيحة ... أرسلَا له مَن يعيده إلى الفندق، وإن لم يصلَا أو تأخَّرَا في الوصول فسوف يتركانه حتى يحلَّ الظلام، وتنشط حاسَّة الافتراس عند الحيوانات ويُصبح صيدًا سهلًا لهم، وأعقب «أحمد» هذا الكلام بقوله مهدِّدًا: وليس هناك مجالٌ للرفض.

اضطر السائق لتنفيذ ما طلبه منه «أحمد» حتى إنهما جرَّداه من سلاحه؛ كي لا يعتمدَ عليه في حماية نفسه فيخل بالاتفاق، وأيضًا ... حتى لا يصطادهما من ظهرهما، وغادر العربة وانتقل «أحمد» إلى كرسيه وبجواره «إلهام» وودَّعاه ... وانطلقَا يُكملان الطريق إلى «سافاري لودج» الذي وصلاه في غضون ربع ساعة، فلم يجدَا طائرتهما الـ ٤٤٥، فانزعجا للغاية ودارَا حول أرض الهبوط يبحثان عمن يسألانه.

وقد كان هناك جمعٌ من السائحين يقفون في انتظار قيام طائرتهم، فتفحَّصَهم «أحمد» في حذر، فلم يجد بينهم «عثمان»، ولكنه وجد بعض الرجال الزنوج فاختار أحدهم ... وتوجَّه إليه ليسأله ... ولكن لم يكن يعرف الإنجليزية، فعرف أنه أخطأ الاختيار ... وبدأ يشعر بالقلق إلا أن توافُدَ جمعِ السائحين على المكان جعله يطمئن الى أن هناك رحلاتٍ كثيرةً لم تَقُم ... وهذا يضع احتمالًا كبيرًا لعدم قيام رحلتهما بعد. وهدر صوتُ مروحة طائرة ... ستستعدُّ للإقلاع، وركَّابها يتسابقون في الصعود إليها، وأخرى تستعد للهبوط بالتحليق فوق أرض المطار الصغير.

إلا أنه شاهد عن بُعد طائرةً تختفي بين الأشجار ... وكأنها معطَّلة ... أو أنها في فترة راحة ... حتى يحين موعدُ قيامها، فتحركت بداخله روحُ الفضول، وأراد أن يعرف المزيد عنها، فدار بالسيارة دورةً واسعة حول المكان مقتربًا بقدر ما يستطيع منها، فلمح رجلَين زنجيَّين يجلسان من خلفها القرفصاء، وبيدِ كلٍّ منهما بندقية آلية في وضع الاستعداد، فنظر لـ «إلهام» وأومأ برأسه إيماءً حتى لا يلفتَ الأنظار إليه، فسألته «إلهام» قائلة: هل تشك في شيء؟

أحمد: نعم ... فهي إما تخصُّ رجال الدولة من البوليس أو الجيش.

إلهام: أو رجال عصابة مسلحة، ولكن مَن الذي سيسمح لها بالبقاء في مكان حيوي كهذا؟

أحمد: وإذا كانت تخصُّ رجال الدولة ... فهل هي هنا للقبض على «روبيرت» أم لمهمة أخرى؟

إلهام: ما يهمُّنا الآن هو «عثمان». قالت هذا ثم صاحَت بشدة من الألم؛ فقد اصطدم برأسها جسمٌ غريب وكأنها ثمرةٌ سقطَت من أعلى شجرة ثم تدحرجَت داخل السيارة ... تحت المقعد، وانحنَت تبحث عنها ثم نادت تقول: «أحمد» إنها كرة «عثمان» الجهنمية.

القبض على «بيزا»!

أحمد: كنت أشعر أنه قريب منَّا، ولكن ما الذي يُخفيه عنَّا؟

إلهام: أيكون في هذه الطائرة المختفية بين الأشجار …

أحمد: لا أعرف، وسأراسله لأعرف.

حاول «أحمد» إرسال رسالة لـ «عثمان» عن طريق ساعته الإلكترونية، فلم ينجح، فغادر السيارة … وجرى بين الأشجار محاولًا استطلاعَ أمر الطائرة. كانت الطائرة صغيرة ولا تسمح له بتسلُّقِها دون أن يُثيرَ انتباه الحارسَين الجالسين بجوارها … فتسلَّق شجرة قريبة منها، ليرى إن كان بداخلها أحد، فرأى على مرمى بصره … شابًّا أسمر يُسرع بالنزول من أعلى قمة شجرة متسلِّقًا ساقَها، ولم يستطع تحديدَ ملامحه، ولكن هيكله ليس بغريب عنه، فشعر وكأن هذا الشاب يراقب المنطقة … وقد رآه، وهو في الطريق للإبلاغ عنه، فأسرع بالهبوط والعودة إلى السيارة؛ حيث كان هناك ما يشغل «إلهام». فقد التفَّ جمعٌ من السائحين حول فتاة زنجية جميلة تلتفُّ في «ساري» حرير أصفر، وبجوارها رجلان ضخمَا الجثة تبدو على ملامحهما الشراسة، مما يدل على أنهما حارساها. فنظر إليها «أحمد» معجبًا بجمالها وهو يقول: أليست هذه «بيزا»؟

إلهام: نعم؛ إنها جميلة … وجذَّابة.

أحمد: وأين «روبيرت»؟

إلهام: أعتقد أنه لن يظهر إلا عند حضور الطائرة.

وبجوار الطائرة المختبئة دخلت سيارة جيب، فنهض الحارسان يُثبِّتان بها حبلًا من الصلب، ثم ثبَّتاه بالطائرة، وبعدها خرجت السيارة تجرُّ الطائرة بعيدًا عن الأشجار. وتوقَّفَت ليحلَّ الرجلان الحبلَ ويفتحَا بابها … ليصعد رجلٌ أشقر … فيُدير محركاتها، وتهدر مروحتها، ثم يُشير بإبهامه فتقترب «بيزا» ومعها حارساها وتصعد الطائرة …

ويُغلق بابها ... ثم تُحلِّق قريبًا من الأرض وتقطع مسافة قصيرة ثم تعاود الهبوط بجوار طائرة أخرى، ومن الطائرات الواقفة بأرض السافاري مكتوب عليها رقم – ٤٥٥ – ٢، فيهبط منها رجلٌ زنجي ومعه رجلان أوروبيان، ويستقلُّونها، وقبل أن تُقلِع ... كان «أحمد» و«إلهام» قد أخذَا مكانهما في الطائرة ٤٤٥، وعندها أغلق قائدها الباب ... وازداد هديرُ مروحتها ... وارتفعت في الوقت الذي ارتفعت فيه طائرة «بيزا».

تلفَّتَ «أحمد» حوله في حذر يبحث عن «عثمان» ... ولم يجده، فنظر إلى «إلهام» فوجدها وقد لصقَت وجهها بزجاج النافذة المجاورة لها تشاهد مجموعة أقواس قزح التي يصنعها الشلال، ومعها مجموعة السائحين الذين أخرجوا آلات التصوير من نوافذ الطائرة؛ لتسجيل هذه المشاهد النادرة الوجود في أي مكان في العالم، فوجدها «أحمد» فرصة للوقوف خلف قائد الطائرة، ليُتاح له المجال أكثر لمتابعة طائرة «بيزا» ... وقد كان هناك شابٌّ أسمر يجلس بجوار الكابتن ... فطلب منه «أحمد» أن يُعيرَه مكانه لوقت قصير، وعندما التفت الشابُّ إليه، اتسعت حدقتا «أحمد»؛ فقد كان هو «عثمان» الذي أشار له بإصبعه ... ليرى من الزجاج الأمامي للطائرة ... نهر «الزامبيزي» على الحدود بين «زامبيا» و«زيمبابوي» عريضًا ... ليصبَّ في بحيرة تهوي بكل مياهها من فوق حافة عريضة ... فتصنع شلالات فيكتوريا ويتصاعد منها الرذاذ وكأنه أعمدة الدخان الأبيض.

وتقطع الطائرة الشلالات ... من أولها حتى آخرها. ويلاحظ «أحمد» أن طائرة «بيزا» قد أنهت جولتها فوق الشلالات وابتعدت عنهما؛ لتدور في حلقات واسعة ... كادت تغيب فيها عن عينه ... فدفع «عثمان» برفق في كَتِفِه قائلًا له: ماذا بعد؟

فأتاه صوتٌ أجشُّ من خلفهما يقول: لا شيء، إنكما مختَطفان. ثم وجَّه كلامَه لقائد الطائرة قائلًا: الطائرة مختطفة يا كابتن، توجَّه إلى منطقة المحميات.

وتحت وطأة القلق البالغ على مصير الركاب ... وخوفًا عليهم ... لم يجد قائد الطائرة من بُدٍّ من الانصياع لأمره، وتوجَّه بالطائرة إلى البراري. فظهرت على مدى البصر طائرةُ «بيزا»، وهنا فَهِم «أحمد» الخطة؛ فقد أمر المختطف قائد الطائرة بتتبُّعها. وبعد مسيرة عشر دقائق، والركاب في حالة ذُعْر هبطَت الطائرة المقلَّة لـ «بيزا» وخلفها الطائرة المقلَّة للشياطين، والتي توقَّفت على مسافة قريبة منها، فأمر المختطف بنزول «عثمان»، ثم بعد فترة قصيرة أمر بنزول «أحمد»، وأخيرًا أمر بنزول «إلهام». وأعقب ذلك إطلاق للنار متبادَل بينهم صعدت على أثره الطائرة المختطفة بأمر من مختطفها ... وغابت عن العيون ...

وبعد فترة قصيرة، خرج من الطائرة حارسَا «بيزا»، ففتَّشَا الشياطين الذين لم يُبدوا أيَةَ مقاومة، ثم سمحوا لهم بالصعود إلى الطائرة، إلا أنهم امتنعوا؛ فهم يريدون معرفةَ ما

يتم أولًا، إلا أن الحارسَين كانَا نافذَي الصبر فحاولَا الاعتداءَ بالضرب على «أحمد» و«عثمان»، فانتهى الأمر بهما إلى جذع شجرة ... قيَّدوهما بها وأغلقَا فمهما ببعض الحشائش، ثم اتفقَا أن تصعد «إلهام» أولًا ... لإشعارهم بالاطمئنان ... وكان اللقاء بـ «بيزا» رائعًا، وقد بدأَته بسؤالها قائلة: لماذا أتيتم خلفنا؟

إلهام: أنتِ مطلوبة في مصر.

بيزا: أنا الآن على أرضي.

إلهام: ولو كنتِ على القمر؛ لقد ارتكبتِ جرائم في حقنا ... ولن نتركك.

بيزا: أنتم تحت رحمتي، وسأنتهي منكم ... وأُكمل ما قد بدأتُه.

كل هذا الحوار ... وكان الرجل الأسمر الهادئ ... يجلس بجوارها مبتسمًا ... فأشارت إليه «إلهام» قائلة: أنت «روبيرت» ... أليس كذلك؟

الرجل: نعم.

في هذه اللحظة ... دخل «أحمد» إلى الطائرة، شاهرًا مسدسَه وهو يقول: لم نكن نريد أكثر من ذلك «بيزا» و«روبيرت» ...

روبيرت: كيف تركوك مسلَّحًا؟

أحمد: من ... حارسَيك؟ إنهما مقيَّدان بإحدى الأشجار ...

وفي ابتسامة ثقة سألَته «بيزا»: وماذا ستفعل بنا؟

أحمد: سأُسلِّمكم للسلطات.

روبيرت: بأية تهمة؟

إلهام: الاختطاف.

بيزا: مَن اختطفكم ... ومَن أرسلكم للتفاوض معنا، فلم تعودَا له ... هرب ومعه باقي الركاب. أما الاختطاف فهو ما تفعلون الآن.

في هذه اللحظة ... دخل «عثمان» قائلًا: لا تشغلوا بالكم ... لقد قتلتم في بلدي الأبرياء ونحن هنا لمطاردتكم، وليس لدينا دليلٌ عليكم لنسلِّمَكم للشرطة، ولا أحدَ يملك دليلًا علينا ... إن عاقبناكم.

لاحظَ «أحمد» في هذه اللحظة أن قائد الطائرة يعبث بمفاتيحها، وقد كان «عثمان» يقف خارجها ورأسه بين ريشات المروحة، وقد صدق ظنُّه؛ فقد دارت المروحة ولكن بعد أن دفع «عثمان» فسقط على الأرض، وفي نفس اللحظة انطلقَت من مسدسه رصاصة أصابَت كتفَ قائد الطائرة فصرخ متألِّمًا. وبدأت أعصاب «أحمد» تتوتَّر ... إلا أن «عثمان» انتزع منه

ابتسامة بقوله: كنت ستراني جميلًا بدون رأس. وكان الغروب قد بدأ يزحف على البراري، ويزحف معه القلق على وجوهِ كلِّ مَن في الطائرة. وبعد اجتماع قصير بين الشياطين، قرروا الانتهاء منهم في الغابة؛ فأدلة إدانتهم واضحة لهم … فأنزلوهم من الطائرة، وأحضروا حبلًا من معدَّاتهم … ثم قيَّدوهم حول جذوع الأشجار، وقرءوا عليهم حيثيات الاتهام، والعقاب الذي ارتضَوه لهم … وهو بأن يتركوهم طعامًا للحيوانات المفترسة.

كانت نظراتُ الدهشة هي ردَّ الفعل الوحيد الذي ظهر على مجموعة «روبيرت»، والتي لم يكن «مارلو» بينهم. ودخل الشياطين الطائرة، وكأنما لم يكن قائدها يظنُّ أنهم يُجيدون قيادتها … ويحسب أنهم سيحتاجون إليه؛ فقد صرخ جزعًا حين دارَت مروحتُها، وبدأت في الصعود عموديًّا، وصرخات «بيزا» ومن معها تعلو لتملأ جنبات الغابة. ومن الطائرة … بعث «أحمد» برسالة لرقم «صفر» … يُخبره فيها بانتهاء العملية والنتيجة التي وصلوا إليها … فأمرهم رقم «صفر» بتحديد مكانهم بدقَّة وإبلاغ السلطات، على أن يعودوا ولا يبرحوا مكانهم إلَّا بعد أن يقبض الإنتربول على «بيزا» و«روبيرت» ومَن معهما. فدار «أحمد» دورةً واسعةً بالطائرة حول المكان … وعاد يهبط قريبًا منهما، وكان الليل قد بدأ يُسدِل أستاره على الغابة، وأصوات خطوات الحيوانات المفترسة الثقيلة … يحملها الهواء من قلب الغابة إلى أسماعهم. فخشيَ «أحمد» ألَّا يصلَ رجال السلطة في الوقت المناسب.

ففكَّ قيدهم هو و«عثمان» و«إلهام» … وقبل أن ينقلوهم إلى الطائرة كان صوت طائرة أخرى يقترب عن بُعد حتى هبطَت بجوارهم، ونزل منها بعضُ الرجال المسلحين … والشياطين قد اختبئوا في الطائرة شاهرين أسلحتهم، ويسألونهم: مَن أنتم؟ فأخبروهم بأنهم من الإنتربول … وهم هنا لتسليم المجرمين … وبعد أن تشاور الشياطين، سمحوا لهم باصطحاب «بيزا» ورفاقها معهم، على أن يعودوا هم بالطائرة التي بحوزتهم. وانتظر الشياطين حتى صعدت الطائرة التي يُقِلُّها رُبَّان الإنتربول وما لم يكن في حسبانهم … أن تخرج رصاصة من نافذتها لتصطدم بمروحة طائرتهم، تبعَتها رصاصة أخرى.

فأسرع «أحمد» بإدارة محرك الطائرة … والصعود بها … ليتحرك في مسارٍ متعرِّج كالثعبان بين الأشجار العالية، مراقبًا للطائرة المُقِلَّة لأفراد العصابة وهو في دهشة لما حدث، ولكنه وجدها تطير في اتجاه الحدود مع «زامبيا»، وهناك لن يستطيع الحصول عليهم، إلا أن «عثمان» لم يصدِّق أنهم سيعبرون الحدود إلى «زامبيا» فهذه مسألة معقَّدة، وقد يتعرَّضون لإسقاط الطائرة. فقال له «أحمد»: ومَن يدريك بأنهم ليس لديهم تأشيرة دخول؟

إلا أن ما حدث بعد ذلك خالف كلَّ توقعاتهم؛ فقد رأوا الطائرة تهبط على مياه البحيرة التي يصنعها نهرُ «الزامبيزي» على الحدود بين «زيمبابوي» و«زامبيا» بجوار قارب ضخم، وأفراد العصابة يخرجون منها ليركبوا القارب.

ومن لاسلكي الطائرة حاول «أحمد» الاتصال بالسلطات في «زيمبابوي» فلم يُفلح، فاتصل برقم «صفر» من جهاز إرساله الخاص، وأبلغه بما حدث وحدَّد له مكان القارب ثم عاد ... محاولًا الهبوط بالطائرة فوق القارب ... إلا أنه لاحظَ أن عداد الوقود يتحرَّك مؤشرُه في اتجاه سلبي؛ مما يدل على قرب نفاده، والمسافة بين موقعه وأقرب نقطة هبوط آمنة لا تقل عن خمس عشرة دقيقة ...

وكان القمر في هذه الليلة بدرًا ... وأقواس قزح تفرش مساحة الشلال بالأنوار الجميلة، إلا أن الشياطين لم يستطيعوا الاستمتاع بها، وقرَّرُوا متابعة القارب حتى ولو نفد منهم الوقود ... ولكن ماذا لو لم يُسعفهم الإنتربول أو سلطات الأمن؟ ستكون نهايتهم في أحضان هذا الشلال الوحشي. ومن وسط هذه التوقعات والأفكار المترقبة ... أخرجهم صفير جهاز الإرسال في الطائرة ... وقد كان المتحدث أحد الضباط في الشرطة يطلب تحديد موقعهم بالضبط، وقبل أن تنفد آخرُ قطرة بنزين في الطائرة ... كان رجال الشرطة في «زيمبابوي» قد قبضوا على مَن في القارب، وفي نفس الوقت كان الشياطين قد نزلوا بالحبال من الطائرة، وتركوها تهوي في قاع الشلال السحيق ...

هنداوي